

في تاريخ الجمعيات السرية

١ - طائفة سرية عجبية

نعيش في عصر المدينه بأساليب همدية

للأستاذ محمد عبد الله عنان

قامت الجمعيات والطوائف السرية في جميع العصور والمجتمعات وتنوعت مبادئها وغاياتها الدينية والسياسية والاجتماعية ، ولعبت مختلف الأدوار في تكوين الآراء والمقائد ، وذهبت في الغلو والإغراق كل مذهب ، وتركت آثارها في جميع الأمم والمجتمعات التي قامت بها

ولكن التاريخ لم يسجل في صفحاته السرية الحافلة سيرة أغرب وأروع من سيرة جماعة سرية من البشر الهائمين اصطلاحوا على التوسل لتحقيق مبادئهم الروحية المزعومة بتشويه الانسان وتعطيل مهمته الاجتماعية بطريقة بربرية اعتبرت في جميع الأمم والمصور وحشية مثيرة تطاردها الأمم التمدينية بمنتهى الشدة والصرامة . تلك هي « طائفة المجهولين » (سكوبتسي) Skoptsy السرية التي قامت في روسيا في أواسط القرن الثامن عشر ، ولا تزال قائمة حتى اليوم ، والتي تعتبر الجلب وسيلة النقاء من الدنس وطريق الخلاص الأبدي من آثام هذه الدنيا

ولقد عرف التاريخ منذ أقدم العصور أمثلة من هذا النوع اعتبرت فيها هذه الوسيلة الممجبة ضرباً من التضحية السامية التي ترتفع بصاحبها إلى مراتب التقديس ، وظهرت بين بعض طوائف الرهبان في أوائل عصور النصرانية ، وذاعت حيناً بين رهبان الكنيسة الشرقية ، ولكنها كانت دائماً مثار الإنكار من الناحيتين الدينية والإنسانية

وعرفت معظم العصور والأمم طوائف الخصبان والمجهولين من العبيد والخدم ، وعرفها المجتمعات الحديثة حتى أواخر القرن الماضي ، ولكن طوائف الخصبان كانت تحشد دائماً من الرقيق بسائر أنواعه ؛ وكان نظام المجتمع منذ فجر التاريخ قائماً على التفرقة بين طوائف المجتمع ، وكان الرق مشروعاً في هاتيك العصور ،

وكان الرقيق متاعاً مباحاً تجرى عليه سائر التصرفات ، وكان الخصى أو الجلب وسيلة بربرية لإعداد طوائف من الخشم تمتاز بصفات خاصة تؤهلها لخدمة القصور والبيئات الرفيعة ؛ وقد استطاعت طوائف الخصبان أن تشق طريقها إلى السلطة والنفوذ في مواطن كثيرة ؛ ولكنها كانت تعتبر دائماً من الناحية الاجتماعية من الطبقات الدنيا ، وكان ينظر إليها دائماً في كثير من الرأى والاشفاق لأنها تعاني حالة اجتماعية منافية للأوضاع الإنسانية الطبيعية

ولكن المجتمعات التمدينية تنكر اليوم الرق وتعتبره ضرباً من ضرور الممجبة الذاهبة . وتعتبر القوانين الحديثة الخصى أو الجلب من أشنع الجرائم التي يمكن أن تقع على إنسان ، وتعاقب مرتكب هذه الجريمة الشائنة بأقصى العقوبات ، بل تعاقبه بالاعدام كالقاتل الممد سواء بسواء

ومع ذلك ففي قلب أوروبا التمدينية تقوم إلى اليوم تلك الطائفة السرية العجبية طائفة « سكوبتسي » Skoptsy وشعارها تلك الجريمة المثيرة جرمية الخصى أو الجلب كوسيلة إلى السعادة الروحية والخلاص الأبدي

وترجع الرواية قيام هذه الطائفة السرية إلى أواخر القرن السابع عشر على يد فلاح يدعى دانيلو فلييوف ؛ ولكنها عرفت يومئذ بجماعة « أهل الله » ، وترغم الرواية أن دانيلو هذا ألقى ذات يوم جميع الكتب المقدسة في نهر « الفولجا » وقال إنه لا يوجد كتاب يحقق سلام الروح الأبدي سوى الروح القدس ذاته ؛ ثم صمد إلى الجبل مع نفر من أنصاره ، فزلت عليه سحابة من النور ، ونفذ إليه الروح القدس ؛ وزعم أنصاره أن الإله قد مثل في شخصه على مثل ما يزعم الدروز بالنسبة لشخص الحاكم بأمر الله

وتتلخص تعاليم فلييوف فيما يأتي : إن الإله الذي بشرت به الأنبياء نزل إلى الأرض لينقذ أرواح البشر ؛ وليس ثمة من إله غيره ، ولا تعاليم غير تعاليمه ؛ وعلى المؤمنين أن يطعموه ، وألا يشربوا الخمر ، وألا يرتكبوا الزنا ، وألا يتزوجوا ؛ وعلى من تزوج ألا يقرب زوجته ؛ وعليهم ألا يسرقوا ، وأن يحتفظوا بسر تعاليمه ، وأن يحب بعضهم بعضاً ، وأن يؤمنوا بالروح القدس .

تحقيقاً للعفة والسعادة الأبدية . ولم تستطع السلطات يومئذ أن تظفر بزعيم الطائفة الحقيقي ؛ ولكن ظهر فيما بعد أنه فلاح يدعى سلفانوف ، وهو فتى في الثلاثين من عمره ، هادئ المزاج ، كثير التأمل والهيام ، عارف بالقراءة والكتابة وهو ما كان يندر في ذلك العصر ؛ وكان يبشر بدعوته بعبارات صوفية غامضة ؛ وكان من زعماء « أهل الله » ولكن راعه ما رآه من ذبوع الفسق بين المؤمنين ، فبدأ دعوته ضد « السحر » النسوى أصل كل بلاء وإنهم ، وأخذ يدعو إلى « النقاء المطلق » ؛ وهذا النقاء لا يتحقق في رأيه إلا بمجانبة كل بواعث الضعف ولا سيما الاغراء الجنسي ، والكبرياء ، والأنانية ؛ ولا سبيل إلى تحقيق هذا المثل الأعلى إلا « بقتل الجبنة » أو بعبارة أخرى إعدام الأعضاء الجنسية والتخلص من آثارها

« هكذا نشأت طائفة «المجبوبين» (سكوبتسي) ، واستطاع سلفانوف أن يمشد حوله جماعة من التلاميذ والأشباع معظمهم من الفلاحين البسطاء ؛ ولم تكشف السلطات أمره إلا في سنة ١٧٧٥ إذ قبض عليه وجلده وعذب مراراً ، ثم نفي إلى سيريا ، وقبض على كثيرين من أشباعه المجبوبين ، وجلدوا ، وحكم عليهم بمختلف العقوبات

ولكن الدعوة البربرية لم تمح مع ذلك ، فحملها تلاميذ سلفانوف ورفعوه إلى مرتبة التقديس وأسموه « بالنقذ » وجاوزت الدعوة طبقة الفلاحين إلى الطبقات الأخرى ، فانتظم في سلك الطائفة جند وتجار وغيرهم خضعوا جميعاً لهذا التشويه الممجى ؛ وزعموا أخيراً أن سلفانوف هو الانسان الوحيد الذي مثلت فيه روح المسيح ، وأنه سيمود قريباً . أما سلفانوف فلبث يرسف في منغاف في أركوتسك زهاء عشرين عاماً ، ثم استطاع الفرار أخيراً ولم تهتد السلطات إلى أثره

وفي العام الثاني ظهر في قرية ييخوفو على مقربة من موسكو شخص يرتدى أسماً بالية ، وقد حزم بطنه بسلاسل من الحديد وبدت عليه آثار السقم والورع ؛ فالتف حوله بعض الفلاحين ، وكان يصلي بينهم بلغة مجهولة ؛ ولم يمض سوى قليل حتى ظهرت معجزاته إذ استطاع أن يشفى امرأة مريضة ، وأن يحول الخمر إلى ماء ؛ وفي ذات يوم أخذ يتكلم بالروسية وزعم أنه القيصر

وتبنى فليوف بعد ذلك فلاحاً آخر يدعى سوسلوف وزعم أنه هو ابنه المسيح ، واختار سوسلوف له اثني عشر رسولا ، وتوفي سنة ١٧١٤ ، ودفن في أحد الأديار

وبعد وفاة سوسلوف تمثت روح المسيح على زعمهم في شخص لوبكين وهو جندي من فرقة الاسترلزي ؛ وعلى يديه انتشر مذهب الطائفة في كثير من الأديار بين الرجال والنساء معاً . ولما استفحل أمره قبض عليه وأعدم سنة ١٧٣٢ وأخرجت جثته فيما بعد وذر رفاته في الهواء ؛ وقبض على كثيرين من أشباعه وحكموا بتهمة الروق والكفر ونفي كثيرين منهم إلى سيريا ؛ ولكن هذه المطاردة لم تمح من حسنة أولئك الكفرة المتعصبين فاستمروا يبتشرون مبادئهم في الخفاء ، ويتماقب في زعماتهم مسيح بعد آخر ؛ وكانوا يقيمون شعائرهم سرّاً في جوف الليل في بعض الضياع أو الأنحاء المهجورة ، وفي أواخر القرن الثامن عشر تطورت مبادئ الطائفة وتوسع بعض دعائهم في تفسير تعاليم فليوف ، وقال إن الزواج المحظور هو الزواج الكنسي فقط وأن « الأخ » يستطيع أن يتصل بأخته اتصالاً روحياً ؛ ولم يلبث أن ذاع بينهم الاختلاط الجنسي الحر ، وكان هذا الاختلاط يتخذ أحياناً صوراً مثيرة ، فتعد جماعاتهم بالليل ، وتنتهى شعائرهم الزعومة بمناظر مروعة من الفجور والفسق

وكانت هذه نقطة التحول في مبادئ طائفة « أهل الله » : ذلك أن فريقاً من المؤمنين رأى في هذه الحياة الجنسية الشائنة خروجاً على تعاليم فليوف التي تحمّ التزام الفضيلة والعفة ، ورأوا في « الحب » خير وسيلة للتخلص من الشهوات والمزبقات الآثمة ؛ ومن هنا ظهرت طائفة « المجبوبين » (السرية سكوبتسي) واكتشفت السلطات الضحايا الأولى لهذه الدعوة البربرية في سنة ١٧٧٢ في مقاطعة أورمل ؛ وظهر من التحقيق الذي أمرت الامبراطورة كاترين بإجرائه أن الدعاة يزعمون أنهم يرسمون للبشر طريق الخلاص الأبدي ، وأنه يجب على المؤمن ألا يذوق الخمر ، وألا يباشر النساء ، ويجب على الفتيان والفتيات ألا يتزوجوا ، كما يجب على المتزوجين أن يضربوا عن الاتصال الجنسي ؛ وظهر أيضاً أن الدعاة استطاعوا أن يؤثروا على كثيرين من الفلاحين ، وأن يحملوهم على قبول الخصى أو الحب المطبق

الدعى في سجنه طيلة حكم بول الأول ؛ وقبض أيضاً على تلاميذه ورسوله « شيلوف » وسجن حتى موته وغدا قبره مزاراً يحج إليه المجربون من سائر الأنحاء

وفي عهد القيصر اسكندر الأول تنفست طائفة المجريين الصعداء ، لأن القيصر الجديد كان ذهنًا حرًا في معنى من المعاني ؛ وفي عهده صدرت عدة مراسيم تحريرية ، ومنها مرسوم بالكف عن مطاردة المجريين « لأنهم بفعلهم الذميمة قد عاقبوا أنفسهم بأنفسهم عقاباً كافياً » وعلى ذلك أطلق سراح المعتقلين منهم ، وانتدبت لجنة خاصة لبحث جميع المسائل المتعلقة بالطائفة ، وأفرج أخيراً عن سلفانوف بتدخل سيد بولوني من ذوي النفوذ يدعى الكسي اليانكي ، وكان من المتصوفين الهاميين ، فاعتنق مبادئ الطائفة وكان أول أعضائها من خاصة المثقفين ، وقد لعب فيما بعد دوراً عظيماً في تطورها وتقدمها

وسنرى فيما يلي كيف عاشت هذه الطائفة السرية العجيبة خلال القرنين التاسع عشر والعلم والنور ، وكيف أنها لا تزال قائمة حتى يومنا في ظل النظام البلشفي ، وفي قلب أوربا المتعدنية (١)

(للبحث بنية) محمد عبد الله عنانه
ينا في أوائل أكتوبر

(١) اتصنا في هذا الفصل بالبحث المنفيض الذي كتبه المؤرخ فولكوف عن طائفة « سكوبيتس » وما كتبه سخمولين في مؤلفه بالفرنسية عن القضايا الروسية الشهيرة

« بطرس فيدروفتش » ولم يكن هذا الدعى سوى سلفانوف نفسه ، رأى في حوادث البلاط الروسى يومئذ متفذاً جديداً لدعوته ؛ والقيصر بطرس فيدروفتش أو بطرس الثالث هو زوج الامبراطورة كاترين ، وقد توفى سنة ١٧٦٢ في ظروف مؤسسية غامضة ، وأهتم زوجه بتدبير مصرعه لأنها كانا على خلاف دائم ؛ وكان القيصر مصاباً بالضعف الجنسي ، وكانت زوجه تبغضه ويفضها لفجورها ؛ ولكنه كان محبوباً من بعض طوائف الشعب لنزعة الحرة وخلاله الرقيقة ، وكان من مآثره التي زادت في حبه أن أفرج عن آلاف عديدة من المثقفين لأسباب دينية ؛ فلما توفى على هذا النحو التامض ذاعت حول وفاته أقاويل وروايات كثيرة ، وزعم كثيرون أنه لا يزال على قيد الحياة ، وقام أكثر من دعى ينادى بأنه القيصر بطرس ، ومن أشهر هؤلاء بوجاتشيف زعيم القوزاق الذى أثار الثورة حيناً في مقاطعة الأورال ، ثم هزم وأعدم . واتخذت هذه الأسطورة على يد سلفانوف وأتباعه صبغة جديدة ، خلاصتها أن المسيح تمثل لآخر مرة في شخص القيصر بطرس الثالث ، وأن أمه المذراء اليزايت ولدت بمعجزة ثم نخلت عن العرش لوصيفة لها تشبهها كل الشبه ، وذبحت لتعيش بين « أهل الله » في مقاطعة أوريل باسم الفلاحة آكولينا إيفانوفا . ولما كبر بطرس وزوج بالامبراطورة كاترين اكتشفت زوجه أن به عنة فاعتزمت قتله والاستيلاء على العرش من بعده ؛ ولكن بطرس علم بأمر هذه المؤامرة ، فترك العرش وغادر بطرسبرج « لى يقامى مع أهل الله » وقتل مكانه محبوب يشبهه كل الشبه ؛ واختفى القيصر حيناً ثم قبض عليه ، وعذب كما عذب المسيح ، ونفى مدى عشرين عاماً في مكان سحيق ، ولكنه استطاع أن يفر ، وأن يعود متشجاً بكل مجده وعلاه

تلك هى الأسطورة التى مزجها سلفانوف بشخصه ، وحاول أن يستغلها من الناحيتين السياسية والدينية ؛ ولكنه لم يلبث أن وقع في يد السلطات مرة أخرى ، فقبض عليه في موسكو سنة ١٧٩٧ ، وزج إلى دار المجانين في بطرسبرج ؛ وأراد القيصر بول الأول (وهو ابن القيصر بطرس الثالث وكاترين) أن يرى ذلك الدعى الذى يزعم أنه أبوه ، فاستدعى سلفانوف إليه ، وجرت بينهما محادثة تنبأ فيها سلفانوف للقيصر بموت سريع عنيف . ولبث

رفائيل

لشاعر الحب والجمال لامرئين

مترجمة بقلم

احمد حسن الزيات

تطلب من لجنة التأليف والترجمة والنشر

ومن إدارة « الرسالة »

التم ١٢ قرشاً